الشعر العربي

في التاريخ

بحث انتقادي جديد في الشعر ورجاله من اقدم الازمان الى الآن

﴿ تمهيد تاريخي ﴾ للهلال الجغرافي الذي يبدأ في البحر الاحمر ويلتف على سوريا والجزيرة منتهياً بخليج العجم اهمية كبرى في التاريخ. فهو مقر العنصر السامي ومنهُ نشأت اديان العالم العظمى — اليهودية والمسيحية والاسلام. على ان اليهودية لم تكن حتى في معظم قوتها السياسية الاَّ حركة موضعية فقد انحصرت قوتها السياسية في قطر واحد ثم لم تلبث حتى سقطت واصبحت فكرة روحية تربط بقايا مبعثرة من الشعب الاسرائيلي في انحاء المعمور. وما الصهيونية اليوم الاَّ حركة استعمارية يراد بها استثمار فلسطين واحياء قوة اليهود السياسية في ذلك القطر وستبقى هناك ما دامت اموال المستعمرين ومآرب الساسة تعضدها ولكن لن تخرج عن كونها حركةً موضعية فقط

اما المسيحية فقد نشأت على شواطىء البحر المتوسط الشرقية على انها لم تتمَّ في الشرق ولا توسَّعت هناك بل وجَّهت قوتها الى الغرب فقطعت البحر والبر وهجمت بمبادئها على المملكة الرومانية فاستولت عليها وحوَّلت عرش الامبراطرة الى عرش روحي دنيوي مقرّه انقاتكان ثم خرجت منها السيادة الدنيوية فبقيت كما هي الآن قوة روحية تجمع تحت اجنحتها امم الغرب وعروشهم وقليلاً من امم الشرق

وخلا الجوّ في الشرق الادنى لديانة اخرى ظهرت في الحجاز فانتشرت بين الامم الشرقية حتى استولت على غربي اسيا وشمالي افريقيا وحملت معها لغة لا تزال الى الآن لغتها المقدسة

ولانهماك دعاتها الاولين بتأييد سلطانهم الديني لم يكن للآداب من مجال كبير بينهم ثم لما تحوَّل الاسلام الى ملك عضوض عاصمتهُ دمشق رأى اولو الامر يومئذ ان لا بدَّ لهم من الرجوع الى العصبية الجنسية فنادوا بافضلية العرب وانصرفوا

لتقوية هذه الفكرة الى الاخذ بناصر الشعر العربي القديم فنشطوا اربابهُ واغدقوا عليهم العطايا واصطنعوا من الشعراء دعاة لهم ورفعوا للناس علَماً مكتوباً عليهِ « الكمال الادبي للجاهلية »

تلك احوال سياسية لم تلبث ان زالت. فان سلطنة دمشق المؤسسة على العصبية العربية قهرت امام سلطنة بغداد القائمة على سيوف الاعاجم فلم تبق الجاهلية في مرتبتها الاولى — مرتبة الكمال — اذ تسرّب الى حياة الادب العربية دماء جديدة وافكار جديدة وهكذا حدثت في العصر العباسي تلك النهضة الفكرية العظيمة المبنية على العلم والفلسفة . فخسر الشعر شيئاً من روحهِ القديمة ولكنهُ ربح عواطف وصوراً جديدة فاصبح نوعاً ما عمومياً وربما كان ذلك من اهم الاسباب في انصراف بعض رجالهِ الى التأمل والنظر في الوجود كما سيجيء

ثم ضعفت سلطنة بغداد ومزقت اطرافها دويلات دويلات اكثرها غير عربي فضعفت بذلك شعلة الروح الادبية التي كانت تضطرم في نفوس الناطقين بالعربية واستعاضوا عنها بالجمع والنقل والمثاقفة ولم يطل امرهم كذلك حتى جاء المغول فقضوا على بغداد واطفأوا ما كان باقياً من نور المدنية العربية في الشرق

ووافق ذلك قيام البربر في الغرب واستيلاءهم على بقايا السلطنة العربية في الاندلس فاطفأوا بذلك شعلة الادب العربي في تلك الاصقاع . واصبح الشعر العربي في ظلمات الاجيال التي تلت سقوط بغداد وقرطبة واشبيلية كنهر صغير في فدافد رملية يجري قليلاً ثم يغوص في الرمال ويجفّ في الرمضاء

وجاء القرن التاسع عشر بنوره العلمي منبثقاً من بلاد الغرب فانتبهت اليهِ ابصار الشرقيين وهبوا من سباستهم يطلبون العلم والحضارة الحديثة وهذي هي النهضة الجديدة التي انتشرت اخيراً في الشرق الادنى وقد دخل فيها الشعر العربي في طور جديد واصبح يرفل في برود قشيبة من النضارة والاستقلال الفكري وانتشرت العلوم الطبيعية فرفعت العقول واثارت النفوس وفتحت للشعر ابواباً جديدة . والمتفائلون يرون في هذه النهضة متسعاً للرقي لم يحلم بهِ اجدادنا من قبل ويعتقدون ان الشرق اليوم على عتبة نهضة اجتماعية لم يسبق لها مثيل في التاريخ

﴿ اطوار الشعر العربي ﴾ الشعر عموماً ثلاثة انواع — الغنائي والقروسي والروائي. فالغنائي ما يعبر عن عواطف خاصة من مثل الغزل او الرثاء او المديح او

الهجاء او العطف او العظة وما شاكل من انواع التقريض التي تقتضيها العاطفة في ساعة هيجان النفس . واصل هذه التسمية ان هذا النوع من الشعر كان يغنى او ينشد على الآلات فاتخذ لهُ الغربيون اسم الغنائي Lyric سواء أغني ام لم يغنَّ

والقروسي Heroic or Epic وقد يسمى البطولي ايضاً ما يدور على شخص خاص او شخصية خاصة هي محور العواطف التي يمثلها الشعر اذ يصوّر اعماله ووقائعهُ او اخلاقهُ وصفاتهِ في شكل يرفع النفس ويهيج عواطف العظمة فيها وربما استعيض عن الشخص بالامة وعن اعماله باعمالها واتجادها. اما الروائي فيتناول القصص والروايات من تمثيلية وسواها فيصوّر فيها احوال الحياة وعبر الزمان ويرسم فضائل النفس واختبارات الانسان في قالب روائي على نحو ما يفعلون في الروايات النثرية

فاذا دققنا في الشعر العربي رأيناهُ منحصراً في النوع الاول فكلهُ او جلّه من الشعر الغنائي ولم نرَ شاعراً عربيّاً قديماً او حديثاً اهتم بغير هذا النوع من الشعر وقد اجاد فيهِ العرب كثيراً ولكنهم لم يتعدوهُ ولذلك جاء شعرهم من اول ازمانهِ الى اليوم نوعاً واحداً فاذا قلنا اطوار الشعر العربي فنحن لا نعني الاَّ الاحوال التي مرّ عليها في عصور التاريخ من حيث هو نوع واحد لا من حيث هو انواع او طرائق واهمّ هذه الاطوار ثلاثة

الطور القديم

ونعني بهِ ما نظم من اقدم ازمانهِ الى اواخر العصر الاموي اي في القرنين السادس والسابع وبعض القرن الثامن للميلاد. وقد رأينا ان نسمهُ بالقديم لقدمية تاريخهِ اولاً ولمحافظتهِ على الاسلوب الجاهلي ثانياً . فان مواضيعهُ ومراميهُ وتعابيرهُ لم تتغير شيئاً يذكر في هذا الطور — الوقوف على الطلول وندب الظعائن الراحلة ووصف الشوق والوجد والتخلص الى المدح او الهجاء والفخر . ولا فرق بين شعراء الجاهلية فيهِ وشعراء الاسلام الاَّ ان الاولين اذا صح كل ما روي لهم كانوا اقرب الى الطبيعة ابعد عن التكلّف فهم اذا مدحوا او فخروا مدحوا فرسانهم وفاخروا برجالهم او بانفسهم شعوراً بذريحية او تأثراً من فروسية . واذا وصفوا الماَّ في النفس او مشهداً من مشاهد الطبيعة وصفوا ما يرونهُ او يشعرون بهِ وقد تبعهم الاسلاميون الاوّل ونسجوا على منوالهم ونجدهم في تعابيرهم دون ان

يشعروا شعورهم او يقفوا نفس موقفهم . وشتان بين من يتكلّم عن شعور تدفعهُ اليهِ طبيعتهُ او احوالهُ الخاصة ومن هو مدفوع اليهِ دفعاً لمآرب ذاتي ومطامع مادية . ومع انهُ لا داعي ان نبخس شعراء العصر الاسلامي الاول حقهم لاسيما وان الرأي العام لا يزال يصوّر لنا مشاهيرهم كجرير والاخطل والفرزدق بصور الابطال الذين لا يشق لهم غبار فانهُ لا يسعنا بعد النظر الى دواوينهم بعنظار الانتقاد الحديث الا ان نضعهم في محلهم الحقيقي

فا شهرتهم التي تنعموا بها الاّ صدى تلك الحركة السياسية في الدولة الاموية التي رفعت شعراء الخلفاء والامراء الى اعلى عليين. ومن يقرأ اشعارهم يعجب بقوّة شاعريتهم اي بمقدرتهم على النظم وسرعة خواطرهم في ذلك ولكنهُ يستصغر تلك الروح التي تتمثل في قصائدهم ويتعجب من شغف الناس بقصائد لا قيمة لها الاّ انها مشهورة

فلا ريب ان الشعر الجاهلي افضل انواع الشعر القديم لانهُ على بساطتهِ وسذاجتهِ يمثل لنا الطبيعة وعواطف الانسان ويهيج في نفوسنا محبّة الجمال الطبيعي والرغبة في فضائل الرجولة وحسب ذلك ان يجعل الشعر شعراً جميلاً مهما كان صاحبهُ . ولا يرى هذا الجمال خارج الشعر الجاهلي في ذلك العصر القديم الاّ في نشائد الحب التي اشتهر بها جميل وكثير وقيس وعمر وامثالهم من الضاربين على اوتار القلب الهائمين في مهامهِ الحب

﴿ العواطف التي يمثلها الشعر القديم ﴾ فاذا ذكرت ما يمثلهُ الشعر القديم من العواطف فانما اعني الشعر الجاهلي بالاخص وهذه العواطف او السجايا كثيرة اهمها ما يلي :

الكرم — رفع الشعر القديم الكرماء الى درجة عظيمة من الكرامة فجعل حاتم طي والحارث بن عوف وهرم بن سنان وسواهم من الاجواد ابطالاً يضرب بهم المثل . والكرم في كل عصر وفي كل امة مظهر من مظاهر النفس التي تستحق المدح والاحترام ولاسيما في امة كالامة العربية وفي بلاد كبلاد العرب الكرم فيها ضروري ومفيد جدًّا للناس . هناك لا يرى المسافر غير منازل الاجواد مأوى ولا يجد غير ذبائحهم طعاماً فلا بدع ان يشعر بعاطفة قوية من الشكر لمن آواهُ في البيداء واطعمهُ ورواهُ في الرمضاء . وقد عرف امراء العرب ذلك

فتبارزوا في مظاهر الجود حتى صار همّ الواحد منهم ان يكون مقصد الناس وحديث اسمارهم وللوصول الى هذه الغاية لم يمسكوا شيئاً ممكناً عن ضيوفهم مما يجعلهم آمنين ناعمين . وها نحن اليوم لا نزال نترنم مع مئات الاجيال الماضية بمدائح الاجواد وبسطة ايديهم

الفروسية — ويدخل فيها الشجاعة والنجدة واحتمال المكروه وهي صفة لازمة لمن كانت معيشتهم على الغزو والحرب . نراها في عصور الجاهلية القديمة كما نراها اليوم بين رجال الحرب والجلاد . وللفروسية تأثير كبير على النفس ولاسيما اذا كانت مقرونة بالقوة الجسدية . ولذلك اصبح عنترة بن شدّاد وهو ابن امة مثالاً اعلى في تاريخ العرب وما ذلك الا لان الشعر صوّرهُ لهم كبطل مغوار لا يهاب المنايا . ومثل عنترة عدد كبير من فرسان العرب الذين لا ميزة لهم الاّ شدتهم في الحرب وشجاعتهم عند الصدام

الفخر — جبل كالعرب مؤلف من قبائل وعشائر لا شيء اقرب الى طبائعهم من التعصب للقبيلة والتفاخر بمحامدها . وللفخر عند العرب منزلة كبرى ولم يكن الشعراء الاّ لسان حال القبائل يوم التفاخر وسلاحها الماضي في المعامع الكلامية وساحات النضال . وقد خفّف الاسلام في اول امره الفخر بالعصبية او العشيرة ولكنهُ لم يقتلهُ اذ ما لبث ان ظهر بعد برهة في مظاهر مختلفة كلها ترجع الى سجية واحدة هي حبّ التفاخر بالعشيرة . وما تعصّب الشعراء في العصر الاموي للاحزاب السياسية التي كانت تتطاحن فيهِ الاّ صدى تعصبهم لعشائرهم في الجاهلية — نعم الاسباب مختلفة قليلاً ولكن الروح واحدة وهذه الروح الفخرية عامة في جميع الامم وما الدعوات الادبية والدينية او المظاهرات الصحافية الا مظهر من مظاهر الفخر او العصبية التي تغيرت بتغير الاحوال وتحوّلت بتحول الاسباب الداعية اليها

حفظ الذمام — او الوفاء ويراد بهِ البرّ بالوعد والمحافظة على عهد وهي من اعزّ الصفات واسماها والشعر العربي القديم ملآن من اخبار الذين عرفوا بهذه المزية واشهرهم السموأل الذي اصبح يضرب بهِ المثل بالوفاء . على ان الوفاء عند العرب اكثر ما يراد بهِ المحافظة على عهود النسيب او الضيف او العائذ وما اليهم ولا يراد بهِ عادةً ما يفهم من معناهُ الواسع اليوم من عدم الغدر بالمدوّ او المحافظة على

مالهِ . نعم قد نجد لهذا النوع من الوفاء بعض امثلة في تاريخ العرب القدماء ولكن الذي يدرس احوالهم ويدقق في طبائعهم لا يرى هذه الفكرة الروحية قد بلغت عندهم مبلغها اليوم بين الامم التي ارتقت آدابها العمومية ونظرياتها الاجتماعية . لا اقول ذلك من قبيل التحكم او الاقتناع الذي لا مردّ لهُ ولكن من قبيل الاستناد على مظاهر اجتماعية قد اكون مخطئاً في تأويلها

وللشعر القديم سجايا كثيرة غير ما ذكر . كالصراحة وذم الرخاء والصبر على الاذى وما شاكل مما هو معروف وقد كان بودّي لو استشهدت على كل سجية من السجايا التي ذكرتها آنفاً بابيات من الشعر القديم ولكن ذلك يطيل الكلام ولا اهون من ان يفتح الراغب كتاب الحماسة او دواوين الاقدمين فيرى تلك السجايا ظاهرة للعيان

انيس الخوري المقدسي

فتح الاندلس

(٣)

حين تمّ ليوليان وطريف النصر اخذ موسى بالاستعداد واستجد عزماً في اقتحام اسبانيا فدعا مولى لهُ كان على مقدمته ومن اكبر المحرضين على غزوها يدعى طارق بن زياد بن عبد الله . ويقول كوبه Coppé انهُ فارسي همذاني وقد صار مولى لموسى من صغره الاَّ انهُ على الراجح بربري من نفزة ولذا لقبهُ المؤرخون بطارق البربري . وكان طويل القامة احمر الشعر مبيضّه ويدعوهُ الاسبان طارق Eltuerto اي الاحول (١)

فعقد لهُ موسى سنة ٧١١ وبعثهُ في سبعة آلاف من الجند جلهم من الفرسان البربر والموالي . اما العرب فكانوا قادتهم وضباطهم وهم لا يزيدون على الثلاثمائة . ووجه معهُ يوليان لحمل هذا الجند اسطولٌ تجاري يتألف من اربع سفن يمخر في عباب الرقاق . وهو خاصة يوليان وقد نزل الجند في منت كابه Mons Calpé الذي دعي جبل الفتح او جبل طارق

(١) Coppé الجزء الاول صفحة ٧٨